﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلۡمَآءُ حَمَلۡنَٰكُمۡ فِي ٱلۡجَارِيَةِ ۝١١ لِنَجۡعَلَهَا لَكُمۡ تَذۡكِرَةٗ وَتَعِيَهَآ أُذُنٞ وَٰعِيَةٞ ۝١٢﴾ [الحاقة: 11 - 12]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قبلَهُما:

إهْلاكُ المُخالِفين وإنجاءُ الموافِقين

لمّا ذكر اللّه تعالى أنَّه أهلك فرعون وقوم لوطٍ، وأنَّه أهلك مَن قَبلَ فرعون، وكان لفظ (مَنْ) مفيدًا العمومَ، فقد يُتوهَّمُ أنَّ الإهلاكَ وقع على جميع مَن كان قبلُ، فدُفِعَ ذلك ببيانِ أنَّه سبحانه إنَّما أهلك جميع المخالفين، وأنجى جميع الموافقين، فقال سُبحانَهُ: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلۡمَآءُ حَمَلۡنَٰكُمۡ فِي ٱلۡجَارِيَةِ﴾[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿طَغَا﴾: (طغى) أصلٌ صحيحٌ مُنقاسٌ، وهو مُجاوزةُ الحَدِّ في العصيانِ[2]، يُقالُ: طَغى السَّيلُ؛ إذا جاء بماءٍ كثيرٍ يتجاوَز حدَّ ما كان يجري عليه، وطغى البَحرُ؛ إذا هاجَت أمواجُه[3]، فالطُّغيانُ: تجاوُزُ الحَدِّ في التَّعاظُم والظُّلْم والكُفْر، وفِعْلُهُ يائيٌّ وواويٌّ، يُقالُ: طَغيَ يَطْغَى، كَرَضيَ، وطَغا يَطْغو كدَعا[4]، وأمّا المُراد بطغيان الماءِ هنا؛ فهو: تَجاوزُه في الارتفاعِ والعُلوِّ، وخروجُه عن الحدِّ حتَّى علا كلَّ شَيءٍ، وارتفَع فوقَه[5]، وهو المعروف بالطّوفانِ.

2) ﴿ٱلۡجَارِيَةِ﴾: أصلُ (جري) يدُلُّ على انسياحِ الشَّيءِ[6]، ومن ذلك الجَرْيُ: المَرُّ السَّريع، وأصلُه كَمَرِّ الماء، ولما يجري بجَرْيِه، يُقالُ:

(1) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 349.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (طغي).
(3) ابن دريد، جمهرة اللغة: (طغي).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 314.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (طغى)، والواحدي، البسيط: 22/ 148، والكفوي، الكليات، ص: 584.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جري).

جَرى يَجْري جِرْيَة وجَرَيانًا[1]، والجارية: الشَّمْس، سُمِّيَت بذلك لجَرْيها من القُطر إلى القطر، وقوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ١٥ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ١٦﴾ [التكوير: 15 - 16]، يَعْني: النُّجوم[2]، والجارية هنا مُرادٌ بها: السَّفينة الَّتي تَجري في البَحرِ، وهي صفَةٌ غالبة، وقد شاع هذا الوصفُ حتَّى صار بمنزلةِ الاسم[3].

3) ﴿وَتَعِيَهَآ﴾: أصلُ (وعي) كلمة تدلُّ على ضمِّ شيءٍ[4]، ومنه الوَعْيُ: مصدر وعَى العلمَ يَعيه وعْيًا؛ إذا حفظه[5]، تقول: وعَيْتُ الحديثَ أعيهِ وعْيًا، وأذنٌ واعيَةٌ[6]، وأوْعَيْتُ المتاعَ في الوِعاء أوعيه[7]، ومنه الإيعاءُ: حفظ الأمتعة في الوِعاءِ، قال تعالى: ﴿وَجَمَعَ فَأَوۡعَىٰٓ ١٨﴾ [المعارج: 18][8]، والوَعْيُ المُرادُ به هنا: العِلْمُ بالمَسموعاتِ، أي: ولِتَعْلَمَ خَبَرها أُذُنٌ موصوفةٌ بالوَعْي، أي: مِن شأنها أن تَعيَ[9].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

إنّا لمّا تجاوزَ الماءُ حدَّه في الارتفاعِ؛ حملنا مَن كُنْتُم في أصلابِهم في السَّفينة الجاريةِ التي صنعَها نوحٌ ﷺ بأمْرِنا، فكان حَمْلًا لكم؛ لنَجْعَلَ تلك السَّفينة الجاريةَ وقِصَّتَها موعظةً يُستدلُّ بها على إهلاك أهلِ الكفر، وإنجاء أهل الإيمان، وتَحْفَظها أذنٌ حافظةٌ لِما تَسْمَعُ[10].

إهلاكُ أهلِ الكُفرِ وإنجاءُ أهْلِ الإيمانِ

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّةُ فصلِ قول الله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلۡمَآءُ﴾:

فُصِلَ قول الله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلۡمَآءُ حَمَلۡنَٰكُمۡ فِي ٱلۡجَارِيَةِ﴾ عمّا

بيانُ حَقيقةِ المُهْلَكينَ

(1) الراغب، المفردات: (جرى).
(2) ابن سيده، المحكم: (جرى).
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 123.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وعي).
(5) ابن دريد، جمهرة اللغة: (وعي).
(6) الجوهري، الصحاح: (وعي).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وعي).
(8) الراغب، المفردات: (وعي).
(9) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 123.
(10) نخبة من علماء التفسير، التفسير الميسر، ص: 567.

قبلَهُ؛ لوقوعِهِ استئنافًا بيانيًّا، فبين الجملتينِ شبهُ كمالِ الاتِّصالِ؛ إذ جملة: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ﴾ واردةٌ جوابًا عن سُؤالٍ يُفْهَمُ مِنَ الجملةِ المتقدِّمَةِ: ﴿وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ۝٩ فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً﴾، وحاصلُ السُّؤالِ: هَلْ أُهْلِكَ جميعُ مَن تقدَّم فرعونَ، كما هو ظاهرُ الاسم الموصول (مَنْ)، في قوله: ﴿وَمَن قَبْلَهُۥ﴾؟ فجاء الجوابُ مبيِّنًا أنَّ الهلاكَ عامٌّ لجميعِ المخالفين للرُّسُلِ، لا لِعمومِ العبادِ، بل أنجَى اللهُ تَعالى أهلَ الإيمانِ[1].

دلالة الإسناد إلى ضمير العَظَمَةِ في قوله: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ﴾:

عظمَةُ اللهِ ﷻ وسعَةُ قُدْرَتِه

في التَّعبير عن المسندِ إليه بضمير العظمَةِ (نا)، في قول اللهِ تَعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ﴾ إيماءٌ إلى أنّ إنجاءَ المؤمنينَ وإهلاكَ الكافرينَ حاصلٌ بعظمةِ اللهِ تعالى وسعَةِ قُدْرَتِه وجليل إحاطتِهِ[2].

غرضُ استعمالِ ﴿لَمَّا﴾:

بيانُ رحمةِ اللهِ تَعالى بإنْجاءِ أهلِ الإيمانِ

﴿لَمَّا﴾ في قول اللهِ تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾ يجوزُ أن تكون ظرفيَّةً أو شرطيَّةً[3]، فعلى كونِها ظرفيَّةً زمانيَّةً، فإنَّها تُشير إلى أنَّ رحمةَ اللهِ تعالى بإنجاءِ أهل الإيمان لم تتأخَّر لحظةً عند طغيان الماء، فكأنَّ طغيان الماء كان إيذانًا بالنَّجاة، وعلى كونِها شرطيَّة؛ فإنَّها تفيد تحقُّقَ الجوابِ، وهو الحمل في الجاريةِ عند تحقُّقِ شرطِهِ، وهو طغيان الماء، ففي وقتِ عُمومِ الغرقِ واشتدادِ الطُّوفان؛ تجلَّت رحمةُ اللهِ سُبحانَه بإنجاءِ أهل الإيمان بحَمْلِهِم في السَّفينة، والمعنيان متقاربانِ مُتَآيِلانِ.

بلاغَةُ الإدماجِ في قَولِهِ: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ﴾:

إدماجُ النِّعمة في سياق العِظَةِ تذكيرٌ بأنَّ الهلاكَ رحمَةٌ لمَن اعتبَرَ ونَجا

انتقل النَّظم القرآنيُّ في قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 349.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 20/ 350.
(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 194.

فِي ٱلۡجَارِيَةِ﴾، من سرد نماذجِ العذاب إلى نموذجِ النَّجاة؛ تذكيرًا بنعمة إلهيَّةٍ عظيمةٍ على البشر، وذلك بأسلوب بلاغيٍّ راقٍ يُسمّى الإدماج؛ إذ كان في الآيةِ إدخالُ معنى الامتنانِ والنِّعمة ضمنَ سياق العِظَة والتَّخويف[1].

والسِّرُّ البلاغيُّ في هذا الانتقال: أنَّه لمّا ذَكَرَ الأممَ الهالكة إجمالًا في قوله: ﴿وَمَن قَبۡلَهُۥ﴾، وكان ذلك يشمَلُ قومَ نوحٍ؛ أراد أن يَخُصَّهم بالتَّذكير لا على وجه التَّخويف فقط، بل ليَدمِج فيه الامتنانَ على ذرّيَّة النّاجين، فجاء الفعلُ الشَّرطي ﴿لَمَّا طَغَا ٱلۡمَآءُ﴾، مبنيًّا على حدثٍ شهيرٍ في الذِّهن البشريِّ، وهو الطّوفان، فكأنَّ السّياق يقول: اذْكُروا حينَ طغى الماء، وهو وقتٌ معروف لا يحتاج إلى إعادةِ ذِكْرِ القوم فيه، ثمَّ جاء الجوابُ بقوله: ﴿حَمَلۡنَٰكُمۡ فِي ٱلۡجَارِيَةِ﴾، أي: حملنا آباءكم الذين نجوتُم بهِم في السَّفينة الجارية، وفي هذا تذكيرٌ بفضل اللهِ تَعالى في زمَنِ الهلاك العامِّ، وهو - أيضًا - إدماجٌ للنِّعمة في مقام التَّخويف، بما يُحَفِّز على الاتِّعاظ والاعتراف بالجميل، وهذا المسلَكُ البلاغيُّ البديع يُحوِّل مشهدَ الهَلاك إلى مَعْبَرٍ نحوَ النَّجاة لمن اعْتَبَر، ويُهَيِّئ النَّفس لتلقّي الغاية القادمة من قوله: ﴿لِنَجۡعَلَهَا لَكُمۡ تَذۡكِرَةً﴾[2].

نُكْتَةُ التَّعبير بلفظ الطُّغيان:

جاء التَّعبير عن فيَضانِ الماء وعموميَّته بلفظ (الطُّغيان)، في قوله تعالى: ﴿لَمَّا طَغَا ٱلۡمَآءُ﴾، وهو اختيارٌ بلاغيٌّ مؤثِّر يرسُمُ صورةً حسّيَّة عنفوانيَّةً لحالِ الماء، وذلك على سبيل التَّشبيه التَّقريبيِّ، فالطُّغيان في الأصل: هو تجاوُزُ الحدِّ مع ظُلْمٍ وسَطْوَةٍ، وغالبًا ما يُستعمَل في وصف الجبابرَةِ والطُّغاة، فحين يُقال: ﴿طَغَا ٱلۡمَآءُ﴾، فالقرآنُ يشبِّه الماء الجارف بجبّار متسلِّطٍ، فيُستَحضَر في الذِّهن مشهدُ الماء لا باعتبارِهِ ظاهرةً طبيعيَّةً، بل كأنَّه كائنٌ جبّار، يقتَحِمُ، ويغمُرُ، ويُفني. وهذا التَّشبيه أبلغ من مجرَّد التَّعبير بلفظِ (الفيض) أو (الكثرة)؛ لأنَّ (الطُّغيان) يوحي بقَهْرٍ وعُدْوان وإهلاك جماعيٍّ، وهو أقوى وقعًا في التَّخويف والتَّهويل من طغيان الإنسان نفسِه، بل

(1) السيوطي، الإتقان: 3/ 298، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/ 339، والمراغي، علوم البلاغة، ص: 344، وحبنّكة، البلاغة العربية: 2/ 427.

(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 358، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 122، وما بعدها.

إنَّ المقارنة الضِّمنيَّة تقول: إذا كان طغيانُ البشَرِ يُخيفُ؛ فطُغْيان الماء في الطّوفان أشدُّ وأقسى؛ لأنَّ البشر قد يُدْفَعونَ، أمّا هذا الطُّغيان؛ فلا يردُّه شيءٌ[1].

تَجْسيدُ العذاب في هيئةٍ مُتَسَلِّطةٍ تَقْتَلِعُ بلا رحمَةٍ

بلاغة الاستعارةِ في قوله: ﴿طَغَا ٱلْمَآءُ﴾:

في قول اللهِ تَعالى: ﴿طَغَا ٱلْمَآءُ﴾ استعارة تمثيليَّة؛ لأنَّ المقصود ليس تشبيهَ ﴿ٱلْمَآءُ﴾ بذاته بـ (جبّارٍ)، بل المرادُ تشبيهُ حالِ الماء في اندفاعهِ وشُمولِهِ وغمْرِه المُهلِك، بحال جبّارٍ طاغٍ في اقْتِحامهِ وسَطْوَتِه وبَطْشِه، أي: أنّ التَّشبيه يقَعُ على هيئةٍ ومشهدٍ مركَّب، لا على مُفْرَدٍ.

وصْفُ الطّوفانِ بالطُّغيان يُلْبِسُ ثوبَ الجَبروت؛ ليَرى السّامع في الماء سيفًا ربّانيًّا يبطِش بأمْرِ اللهِ تَعالى

دلالةُ (أل) في ﴿ٱلْمَآءُ﴾:

(أل) في ﴿ٱلْمَآءُ﴾ من قول الله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ﴾ للعَهْدِ العلميِّ، والمرادُ به ماءُ الطّوفانِ، لا كلُّ ماءٍ خَلَقَهُ اللّهُ تَعالى، فكان في تعريفِ لفظ الماء بـ (أل) إشارةٌ إلى ذلك الماء المخصوصِ المعروفِ عند العبادِ، حتّى صار مضربَ مثلٍ في الغلَبَةِ والإهلاكِ، وصار علامَةً على غضب اللّهِ تَعالى وعقابِهِ الاستئصاليِّ.

صيرورةُ الطّوفان مثلًا في الإهلاكِ والإفْناءِ

نُكْتةُ التَّعبير عن الطّوفانِ بلفظِ ﴿ٱلْمَآءُ﴾:

عُبِّر عن الطّوفانِ بلفظِ الماءِ في قول الله سُبحانَهُ: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ﴾ دون التَّصريح بلفظِ الطّوفانِ أو وصْفِ أمواجِه، بل اكْتُفِيَ بلفظ ﴿ٱلْمَآءُ﴾ وهو اسمٌ عامٌّ؛ للإشارةِ إلى أنَّ الماءَ – على لطافَتِهِ وكونِهِ من أسبابِ الحياةِ – قد يُصَيِّرُهُ اللّهُ تَعالى مِنْ أعظمِ أسباب العَطَبِ والهلاكِ، وهذا من أظْهَرِ أدلَّةِ قدرة اللّهِ تَعالى وعظيمِ سُلطانِهِ.

بيانُ عظمَةِ قُدْرَةِ الله تعالى وسُلْطانِهِ

دلالَةُ إيثارِ فِعْلِ الحَمْلِ مادَّةً وصيغَةً:

آثرَ البيانُ القرآنيُّ فِعْلَ الحَمْلِ في قول الله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ﴾؛ لِما يُشْعِرُ به لفظُ الحَمْلِ من العنايةِ والرِّفْقِ؛ إذ

جميلُ لُطْفِ اللهِ تعالى بِعبادِهِ المؤمنينَ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 123، ودرويش، إعراب القرآن: 10/ 195.

لفظُ الحَمْلِ يُستعمَلُ كثيرًا فيما يحتاجُ إلى حفظٍ ورعايةٍ، فيكون اختيارُه ههنا إيماءً إلى أنَّ اللّهَ سُبحانَهُ تولّى المؤمنين بعنايتِهِ، وحمَلَ ضعيفَهُم، فلم يكن حمْلُهُم في السَّفينةِ إنجاءً مجرَّدًا، بل كان نجاةً مقرونَةً باللُّطْفِ والعنايةِ.

وفي التَّعبير عَنْ فِعْلِ الحَمْلِ بصيغَةِ المُضيِّ دلالَةٌ على تحقُّقِ الحَمْلِ وانقضائِهِ، فكانَتِ النَّجاةُ متحقِّقةً مستقرَّةً.

سِرُّ الإسنادِ إلى ضَمير العظَمَةِ ﴿حَمَلْنَٰكُمْ﴾:

تعظيمُ شأنِ النِّعمة وتفخيمُ مَقامِ المِنَّة

أُسنِد فعل الحَمْلِ إلى ضمير العظمة (نا)، في قول الله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾؛ للدلالة على تعظيم شأن نعمة الإنجاء وتفخيم مقام المنَّة بها، وفيه أيضًا دلالةٌ على عظمة قدرة اللّهِ تعالى؛ إذ إنَّ هذا الحَمْلَ الواسِعَ العريضَ لا يُمكِنُ لأحدٍ أن يُحقِّقَهُ أو يتولّاهُ إلّا ربُّ العباد ﷻ.

دلالةُ خِطاب الموجودينَ في: ﴿حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾:

نجاةُ الآباء مِن الطّوفان سببٌ في وُجودِ الأبناءِ

قال اللّه سُبحانَهُ: ﴿حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾، ولم يَرِد في النَّظم القرآنيِّ: (حملناهم)، بل خوطب الموجودونَ وقتَ نزول القرآنِ الكريمِ بضمير الخطابِ الجَمْعيِّ، مع أنَّ الواقع أنَّ اللّه تَعالى أنجى آباءَهُم في سفينة نوحٍ ﷺ، وهذا مِن روائعِ البلاغة في التَّوجيه والتَّذكير، والسِّرُّ البلاغيُّ في هذا الخطاب: أنَّ المنَّة بإنجاءِ الآباء مِنَ الغرق تعود إلى الأبناءِ وُجودًا ومعنًى، فكأنَّ اللّه سُبحانَهُ يقول: لولا أنّي حَمَلْتُ آباءَكُم في السَّفينةِ لَهَلكوا، وما كنتُم أنتُم الآن موجودين، فصارت نعمَةُ النَّجاة الأولى كأنَّها حاصلةٌ لكُم كذلك. وهذا النَّمط من الخطاب ضربٌ مِنْ ضروبِ المجازِ، وفيه إشعارٌ بالقُرْبِ والارتباط بين الحدَثِ والنّاس، بما يُعينُ على استحضارِ مَعْنى التَّقدير والامتنان، وكأنَّ النَّجاة حصلَتْ للسّامعين أنْفُسِهِم، لا لآبائِهِم فقط.

دلالَةُ حرفِ الظَّرفيَّة في قوله: ﴿حَمَلۡنَٰكُمۡ فِي ٱلۡجَارِيَةِ﴾:

المرادُ بالحمْل في قوله تعالى: ﴿حَمَلۡنَٰكُمۡ فِي ٱلۡجَارِيَةِ﴾ أعمُّ من مجرَّد الإركاب، بل هو رفعٌ لهم فوق الماءِ وحفظٌ تامٌّ أثناءَ الطّوفان، ويدُلُّ لذلكَ الاستعمالُ الدَّقيق لحرف الظَّرفيَّة ﴿فِي ٱلۡجَارِيَةِ﴾، فالحرفُ ﴿فِي﴾ لا يتعلَّق بالفعل ﴿حَمَلۡنَٰكُمۡ﴾ في المعنى، بل يتعلَّق بحالٍ محذوف، والتَّقدير: حملناكُم مَرْفوعينَ حالَ كونِكُم في السَّفينة الجارية، وهذا يدلُّ على أنَّ المقصود بالحَمْلِ هو حفظهُم في حالِ الطّوفان، لا مجرَّدُ إدخالهم السَّفينةَ، وبهذا يكون (الحمْل) المذكورُ رحلةَ نجاةٍ شاملة، بدأت من ركوبهم إلى السَّفينة، وامتدَّت إلى بقائهم آمنين فيها فوقَ الماء الطّاغي وهبوطِهِم مِنْها، وهذا المعنى من دقائق المَعْنى؛ إذ لو قيل: حملناكم إلى الجارية أو على الجارية؛ لتغيَّر المَعْنى[1].

السَّفينة صارت كالكَنَف الرَّحيم، تُحيط بِهِم وتَحْمِلُهُم فوقَ الموت الزّاحف تَحْتَهُم

نُكتة التَّعبير بالصِّفة ﴿ٱلۡجَارِيَةِ﴾ دون ذِكْرِ السَّفينة:

لم يُصَرَّح بلفظ (السَّفينة) في قوله تعالى: ﴿حَمَلۡنَٰكُمۡ فِي ٱلۡجَارِيَةِ﴾، بل اكتُفيَ بالصِّفة ﴿ٱلۡجَارِيَةِ﴾، وهذا من أساليبِ الإيجاز البليغِ في القرآنِ الكريم؛ إذ يُذكر الوصفُ الدّالُّ على الموصوف تَغْليبًا لمعناهُ ومقصدِه،

العنايةُ بأثَر النَّجاة أكثرُ مِن العنايَةِ بوَسيلَتِها

ووجهُ البلاغَةِ في هذا التَّركيب: أنَّ لفظ ﴿ٱلۡجَارِيَةِ﴾ صفةٌ لمَوْصوفٍ محذوفٍ، والتَّقدير: في السَّفينة الجارية، لكنْ حُذِفَ الموصوفُ؛ لتكون العنايةُ بالفعْلِ المُدْهش، وهو جريانُ السَّفينة وسَطَ الطّوفان المُهْلِك، فصارت ﴿ٱلۡجَارِيَةِ﴾ كأنَّها اسمُ عَلَمٍ عليها؛ لما فيها من عظمَةِ الفعْلِ ونَجاة الرُّكّاب.

وهذا الحذف يحملُ دلالاتٍ عدَّةً، منها: إبرازُ قدرة الله تَعالى، فجَرَيانُ السَّفينة وقتَ الغرقِ الشّامل ليس بالأمرِ العاديِّ، ومِنْها

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 23.

أيضًا: ترسيخُ صورةِ النَّجاة الحيَّة؛ إذ يُذْكَر من السَّفينة ما يدلُّ على الحركة والسَّلامة، ومنها: إيحاؤُها بالرَّحمة والرِّفق، فـ﴿ٱلْجَارِيَةِ﴾ توحي بانْسيابٍ لا عُنْفَ فيه، بخلاف الطّوفان العنيفِ مِن حَوْلِها، وأيضًا: وصفُ السَّفينة بـ ﴿ٱلْجَارِيَةِ﴾ يُشعِر بَحَرَكَتِها وانقيادِها بأمْرِ اللّه تَعالى في وسطِ الماء الطّاغي، مع أنَّ الرّيح والمَوْجَ كانا مُهْلِكَيْن[1].

مَعْنى اللّام في ﴿لِنَجْعَلَهَا﴾:

العِبرة مِن النَّجاة أعظمُ مِنَ النَّجاة نفسِها؛ لتكون ذِكرى تَهدي اللّاحقين إلى الشُّكر والاعتبار

اللّامُ في ﴿لِنَجْعَلَهَا﴾ مِنْ قول اللّه تعالى: ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ دالَّةٌ على التَّعليلِ، فالمذكورُ هنا هوَ علَّةُ إنجاء المؤمنين في السَّفينة، وهي أن تظلَّ تلك النَّجاة عَبْرَ الأجيال وسيلةَ تذكيرٍ واعتبارٍ وشُكْرٍ[2].

دلالة التَّعبير بفعل الجَعْلِ في قوله: ﴿لِنَجْعَلَهَا﴾:

بيانُ حِكْمةِ الله تعالى في إنجاءِ المؤمنين

يَرِدُ فعلُ الجَعْلِ مرادًا به الصَّيرورةُ، كما في قول اللّه تعالى: ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾، والصَّيرورةُ في الأصل: نقل الشَّيءِ مِن حالٍ إلى أخرى، وهي هنا تحويلُ هذا الإنجاءِ من صورةٍ حسّيَّةٍ واقعيَّةٍ إلى كونِه مَعْنًى باقيًا في الأذهانِ يعتبرونَ به، ويتَّعظونَ.

نُكْتَةُ إسنادِ فِعل الجَعْلِ إلى ضمير العَظَمَةِ:

تَفخيمُ أثَرِ النِّعمة وإعلاءُ شأنِ الغايَةِ

أُسنِدَ فعل الجَعْلِ إلى ضمير العظَمةِ المستتر (نَحْن)، في قول اللّه تعالى: ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾؛ لتفخيم أثر النِّعمة وإعلاء شأنِ الغاية؛ إذْ لم يكُن تحويلُ حادثةِ الطّوفانِ إلى تذكرةٍ بقدرةِ أحدٍ مِنَ الخَلْقِ، بل بقدرةِ اللّهِ تَعالى وحْدَهُ، فهو وحدَهُ القادرُ على تصييرِ الوقائعِ العابرةِ ذِكْرى، وتحويلِ الهلاكِ إلى آيةٍ باقيةٍ خالدةٍ، فكان في إسنادِ فعل الجَعْلِ إلى ضمير العَظَمَةِ تعظيمٌ للفِعْلِ والغايةِ مَعًا.

---

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 600، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 240، وأبو حيان البحر المحيط: 10/ 256، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 23، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 123.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 123.

بيانُ مرجِعِ الضَّمير في: ﴿لِنَجْعَلَهَا﴾:

الضَّمير في قوله: ﴿لِنَجْعَلَهَا﴾ يعود إلى الحادثةِ كُلِّها أو إلى الجاريةِ أو إلى النَّجاة. وكلُّها معانٍ سائغَةٌ؛ ليكونَ المعنى: لِنَجْعَل الطوفان وما فيهِ مِن عذابٍ ونجاةٍ عظةً دائمَةً.

دلالة تقديمِ الجارِّ والمجرورِ ﴿لَكُمْ﴾:

قُدِّم الجارُّ والمجرورُ ﴿لَكُمْ﴾ في قولِ الله تعالى: ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً﴾؛ لإفادَةِ مَعْنى القَصْرِ والاختصاص؛ إذ أصلُ التَّركيب: لنجعلها تذكرةً لكم، فقُدِّم ما حقُّه التَّأخير، والمعنى: أنَّ هذه التَّذكرة مخصوصةٌ بكُم - أنتُم معشر المخاطَبين - لا تتعدّاكم، ولا تُصْرَفُ إلى غيركُم، وهو قصرٌ مجازيٌّ؛ لأنَّ العبرةَ بالطّوفانِ كانَت لهُم ولغيرهم ممَّن كان قبلَهُم وممَّن جاءَ بعدَهُم، إلّا أنَّ إيثارَ أسلوبِ القصْرِ يُشْعِرُ بعنايةٍ خاصَّةٍ بالمخاطَبين، فيكون ذلك أدْعى للاعتبارِ وسُلوكِ سبيلِ الشَّرْعِ المنزَّل.

العنايةُ بشأنِ المُخاطَبين رجاءَ اعْتِبارِهِم

دلالةُ المَصْدَرِ ﴿تَذْكِرَةً﴾ ونُكْتَةُ تنكيرِهِ:

كلمة ﴿تَذْكِرَةً﴾ مصدرٌ عُبِّر بهِ ليدلَّ على الدَّوام والثُّبوت، أي: نَجْعَلُها موضِعَ تذكيرٍ لا ينقَطِعُ، بَلْ يُتناقَل بين الأمم، فالحكمة ليست في النَّجاة فحسب، بل أن تُروى القِصَّة، ويُتَعلَّم منها، ويُعتبَرُ بها؛ لتكون سُلَّم نجاةٍ لِمَنْ بعدَهُم.

الحكمَةُ ليسَت فـي الـنَّـجـاة فحسب، بل أن تُـروى القِصَّـةُ، ويُتَعلَّم منها

وجيءَ بلفظِ ﴿تَذْكِرَةً﴾ نكرةً؛ لإفادةِ التَّعظيمِ والتَّفخيم، وفي التَّنكير أيضًا مَعْنى التَّنويع؛ إذ هي تَحْمِلُ وجوهًا مِنَ العبرةِ؛ إذ فيها تذكيرٌ بالقُدرةِ، والرَّحمةِ، والبطشِ، والنَّجاةِ، وغير ذلك.

دلالةُ الواو في ﴿وَتَعِيَهَآ﴾:

الواو في ﴿وَتَعِيَهَآ﴾ من قول الله تعالى: ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ عاطفةٌ للفعلِ بعدها على فعل (نجعلَها)، وفي هذا العَطْفِ جَمْعٌ بينَ إظهار فضلِ اللهِ تَعالى في جعلِ القصص

بيانُ وجْهِ كمالِ الانتفاعِ بالتَّذْكِرَةِ

تذكرةً وعبرةً، وبين المطلوبِ مِنَ العبْدِ في قَبولِها ووَعْيِها، وفي الجَمْعِ بينَهما إيماءٌ إلى كمال الانتفاعِ بالتَّذكرة لا يكونُ إلّا باجتماعِ أمرين، أحدهما: توفيقُ اللّهِ تَعالى، والآخرُ: اجتهادُ العبدِ في وعيها.

نُكْتَةُ التَّعبير بالوَعْيِ دونَ السَّماع في: ﴿وَتَعِيَهَآ﴾:

جاءَ التَّعبيرُ بالوَعْيِ في قول اللّه تَعالى: ﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾، دون التَّعبير بالسَّماع، فلم يَرِد في النَّظم القرآنيِّ: (وتسمعَها أذن)، بل قال: ﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾؛ لأنَّ الوعي أعمَقُ مِن السَّماع وأخصُّ، فهو سماعٌ مع فَهْم وحِفْظ[1].

لم يكن إنجاءُ السَّفينة لرُكّابها فقط، بل لكلِّ مَن وعاها قلبُه بعدَهُم

بلاغةُ المجازِ في قوله: ﴿أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾:

أُسْنِدَ الوعيُ - وهو الفَهْمُ والحفظُ والإدراكُ - إلى الأذن في قول اللّه تعالى: ﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾، وهو إسنادٌ مجازيٌّ، وذلك لأنَّ وظيفةَ الأذنِ هي السَّماعُ، والمرادُ بالواعي هوَ صاحبُها لا هيَ؛ إذ الوعيُ مِنْ وظيفةِ القَلبِ والعَقْلِ، وآثر البيانُ القرآنيُّ نسبة الوعي إلى الأذن؛ لأنَّها المدخَلُ الأوَّل للعِلْم وتلقّي الوحي، كما أنَّ هذا الإسنادَ أضْفى تشخيصًا حيًّا على الأذن؛ إذْ جعلها كأنَّها ذاتٌ واعيةٌ تَحْفَظُ ما يَرِدُ عليها، وفي ذِكْرِ لفظِ الوعي مُشاكَلةٌ لِلَفْظِ ﴿وَتَعِيَهَآ﴾، كما قال صدّيق حسن خان: "وجَعْلُ الأذنِ حافظةً ومُسْتَمِعةً ومُتَذَكِّرةً ومُتَفَكِّرة وعاملةً تَجَوُّزٌ؛ لأنَّ الفاعل لذلك صاحبُها، ولا يُنْسَب إليها غيرُ السَّمع، وإنَّما أُتيَ به مُشاكلةً لقَوْلِه: ﴿وَاعِيَةٌ﴾"[2].

الأُذنُ هيَ المَدْخَلُ الأوَّل للعِلْمِ وتَلَقّي الوَحْيِ

نُكْتَةُ التَّقييد بـ ﴿أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾:

في تَقييدِ الأذنِ بوصفِ الوَعْيِ في قول اللّه تعالى: ﴿أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾ دلالةٌ على أنَّ الانتفاع بالتَّذكرة مشروطٌ باستعدادِ النَّفس، فليس كلُّ مَن يَسْمَعُ يَعتبِر، والأذُن هي أداةُ حفظِ المسموع في النَّفْس، فإنْ أمسكتْهُ وحَفِظَتْهُ فهيَ الواعيَة، وإنْ فوَّتَتْهُ، وجاوزتْهُ فهي النّابيَة.

هي نَجاةٌ حيَّة تسري في ذاكرةِ البشريَّة ما بقيت آذانٌ واعيةٌ تسمَعُ وتتَفَكَّر

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والسمين، عمدة الحفاظ: (وعي).
(2) القِنّوجي، فتح البيان: 14/ 290.

بلاغةُ التَّعريض في قوله: ﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾:

جاء التَّعبير في قول اللهِ تعالى: ﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ تعريضًا بليغًا بالمشركين؛ إذ لم تَكُن آذانُهم واعيةً، ولا قلوبُهم مفتوحةً للتَّدبُّر، بل تَلَقَّوْا أخبار العذاب والنَّجاة، كما تُتَلَقّى مُطلقُ القصصِ والأخبارِ، لا باعتبارِ ما فيها مِنْ عِظاتٍ تهزُّ القلوب. وبلاغة التَّعريض ههنا أنَّ المشركين لم يُذكَروا صراحةً، لكنْ في الاقتصارِ على ﴿أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ إشارةٌ ضمنيَّة إلى أنَّ كثيرًا من الآذان ليست واعيةً، فكأنَّ المعنى: ليسَتْ كلُّ أُذُنٍ تصلُحُ لتلقّي هذه التَّذكرة، بل أذنٌ واحدَةٌ فقط هي الواعية، وهذا إزراءٌ بحالِ مَن يسمَعُ القرآنَ وآياتِ التّاريخ فلا ينتفع، وفيه تقريعٌ للمشركين على بَلادَتِهم وغَفْلَتِهم، وهم يسمعونَ آيات اللهِ تَعالى، كما يسمعونَ الشِّعر ونحوَهُ مِنَ أخبارِ السَّمَر، والعبارة تُشعِر بأنَّ العِبرة لا تتعلَّق بوفرة السَّماع، بل بجودة التَّلقّي، فقد يسمع الإنسانُ التَّذكير، لكنَّه لا يَعي، ولا يعتَبِرُ، فيضيعُ عليه الهُدى[1].

مـن لـم تَـعِ أذنُـه آيـاتِ اللهِ تَعالى؛ ضلَّ

فائدَةُ الإفراد والتَّنكير في لفظِ (الأذُن) في: ﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾:

جاء التَّعبير عن لفظِ (الأذن) بالإفرادِ في قوله تعالى: ﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ الآذانَ الواعيَةَ قليلةٌ نادرَةٌ، وأنَّ أكثر النّاس لا يفقهون ولا يَعْتَبِرون، ونُكِّرت للإشادَةِ بعظَمَتِها وجلالةِ قدرِها، فكلمة ﴿أُذُنٌ﴾ جاءت نكرةً لتدلَّ على النُّدرة، والمقصود: أُذُنٌ واحدة واعيةٌ من بينِ آذان كثيرةٍ ليسَت كذلك.

قِـلَّـة الـوُعـاة توبيخٌ للغافلين وتكريمٌ لقلوبٍ فتحت سمعَها للحقِّ

وفي الإفرادِ إشعارٌ بأنَّ الوعي الحقيقيَّ عمَلٌ فرديٌّ، خاصٌّ بمن تهيَّأ قلبُه للقَبول، وليس من دَأْب الأكثرينَ. وفي الآيةِ توبيخٌ لِمَن لا يفقهُ ولا يَعي، ووجهُ ذلك: أنَّ فيها لومًا ضمنيًّا على الجماعاتِ التي تسمع القصصَ والآياتِ، ولا تفقهُ منها إلّا ما يوافق هواها[2].

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 123.

(2) الزمخشري، الكشاف: 4/ 600، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 240، وأبو حيان، البحر المحيط: 10/ 256، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 23.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثالث والستون،
سورة المُلك من الآية 12 إلى سورة المَعَارج الآية 14
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثالث والستون، سورة المُلك من الآية 12 إلى سورة المَعَارج الآية 14
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 63 ، 822 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-647-00-3
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 63 : المجلد الثالث والستون، سورة المُلك من الآية 12 إلى سورة المَعَارج الآية 14.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-647-00-3
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-7111585 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"